

من صحابة الرسول

المجموعة الثانية

٩

عُكْرَمَةُ
بْنِ أَبِي جَهْلٍ

نانيس محمد عزت

عكرمة بن أبى جهل

فى يومٍ من أيام الصيفِ الحارّةِ ، خرجَ أيمنُ وأبوه وإخوتهَ يَسْزُفُونَ فى إحدى الحدائقِ ، لِيَتَعَمَّوا بَجَوْهَا الصُّحُورَ ، وهوانها المنعشِ الغليل .

فبعدَ أنَ تَعَبُوا مِنَ الْجَرى واللَّعبِ ، جَلَسُوا لِيَتَالَوْا قِسْطًا مِنَ الرَّاحَةِ ، وَيتناولوا بَعْضُ المأكولاتِ الخفيفةِ . وَعِنْدَها نَفَّتْ أيمنُ إِلَى والدهِ وقالَ :

— عودتُنا يا أبى أنَ تَقْصُ عَلَيْنَا بَينَ يومٍ وَآخرٍ قِصَصَ الصُّحابةِ الأوائلِ ، وَمواقِفِهِم العظيمةِ الَّتى تُعْجِبُ بِهَا .

فهلَ نَطمعُ أنَ تَقْصُ عَلَيْنَا الآنَ إحدى هذه القِصَصِ ؟

قوبِلَتَ فِكرةُ أيمنَ بِتأييدٍ من أخيه محمود وأخيه هدى وقالَا : نعم يا أبى ، نرجو أنَ تَقْصُ عَلَيْنَا قِصةً واحدٍ مِنَ الصُّحابةِ .

قَالَ وَالِدُهُمْ : مَا دَامَ هَذَا مَطْلَبِكُمْ جَمِيعاً ، فَاسْتَمَعُوا
الْآنَ قِصَّةَ عِكْرِمَةَ بْنِ أَبِي جَهْلٍ .

اسْتَكْرَمَ مُحَمَّدٌ مَا قَالَ وَالِدُهُ وَقَالَ : نُزَيْدُ يَا أَبَى أَنْ
نَسْمِعَ إِلَى قِصَّةِ أَحَدِ الصَّحَابَةِ الْأَفَاضِلِ ، وَلَيْسَ إِلَى
قِصَّةِ أَحَدِ أَعْوَانِ الْكُفْرِ وَالْبَغْيِ .

فَابْتَسَمَ وَالِدُهُ وَقَالَ : وَمَنْ أَخْبَرَكَ أَنَّ عِكْرِمَةَ لَمْ يَكُنْ
مِنَ الصَّحَابَةِ الْأَفَاضِلِ ، وَلَمْ تَكُنْ لَهُ مَوَاقِفُ شَهِيدَةً فِي
الْإِسْلَامِ ؟

فَاسْتَعْجَبَ الْإِخْوَةُ جَمِيعاً لِقَوْلِ أَبِيهِمْ ، وَابْتَدَأَ أَبُوهُمْ
كَلَامَهُ قَالَ : نَعَمْ كَانَ عِكْرِمَةُ مِنْ أَكْثَرِ الْكُفَّارِ عِنَادًا
وَشَرَّاسَةً وَضَرَاوَةً ، وَأَخَذَهُمْ كَرَاهَةً لِمُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَالْإِسْلَامِ ، وَلَكِنْ أَنْظَرُوا يَا أَبْنَائِي مَاذَا
كَانَ مِنْ أَمْرِهِ ، وَكَيْفَ خَتَمَ حَيَاتَهُ شَهِيداً فِي مَبْدَنِ

القتال ، وكيف قدم روحه راضياً في سبيل نصره
الإسلام .

واستطاع الأب بذلك أن يثبذ أنبياء أبنائه إلى قصة
عكرمة بن أبي جهل ، ووجدتهم متناقين لمعرفة حقيقة
أمره ، فراح يحكى لهم قصته ، قال :

- كان عكرمة من أكرم بيوت مكة وأعزها وأكفرها
مالا ، وكان من أشهر فرسانها ، وأبوه الحكم بن هشام
أحد زعمائها ، وكلمته مسموعة في قبائل العرب .

وعندما بدأ محمد بن عبد الله - صلى الله عليه
وسلم - يدعو إلى تبدل عبادة الأصنام ، وعبادة الله
الواحد الأحد ، دفعت الحمية القبلية والخوف من فقدان
السُّلطة والثروة والغنى ، الحكم بن هشام أن يكون أشد
أعداء محمد - صلى الله عليه وسلم - فكان هو زعيم
الشرك الأول ، فعادى الرسول أشدَّ العداء ، وأبول

أشدُّ أنواعِ العذابِ بأصحابه ، وكان من الطبيعي أن يتبعهُ في ذلك ولذهُ عكرمة ، فكان يذهُ التي يَطيْشُ بها ، وسوَطهُ الذي يضربُ به ضعايفُ المُسلمين ، حتى أصبح عكرمةً مثلَ أبيه من أشهرِ ضناديدِ قُريش ، وأشدِّهم غداوةً للإسلام .

قالَ محمود : إنَّ ما قام به الحكمُ بنُ هشامٍ لصُدِّ الناسِ عن دينِ الله ، تَحْتَاجُ جِكايتَه لساعاتٍ وساعات ، حتى إنَّ النَّبيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - على الرُّغمِ من حلمِهِ وسَعَةِ صدرِهِ ، لم يَمْنَعْ أَصْحَابَهُ من إطلاقِ اسمِ أبي جهلٍ عليه ، ومُنْذُ تلكَ اللَّحْظَةِ عُرِفَ الحكمُ بنُ هشامٍ باسمِ « أبي جهل » .

قالَ والِدُهُ : صدقتَ يا محمود ، ولكنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى ، أَرَادَ أَنْ يَلْطُفَ بِعبادِهِ الْمُسْتَضْعَفِينَ ، وَيُريحَ الْمُسْلِمِينَ من ظُلْمِهِ وجَبْرُوتِهِ ، فَكَانَتْ يَهْيَأُهُ في يَوْمٍ يَذُرُ .

وقد عرفتم بالطَّعِ قِصَّةَ الْقَائِلَةِ الَّتِي أَرَادَ الْمُسْلِمُونَ أَنْ
يَغِيرُوا عَلَيْهَا ، وَكَيْفَ اسْتَطَاعَ أَبُو سُفْيَانَ أَنْ يَنْجُو بِهَا ،
وَكَيْفَ خَرَجَتْ قُرَيْشٌ فِي جَيْشٍ كَبِيرٍ لِلْمُلَاقَاةِ مُحَمَّدَ -
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - خَرَجَتْ إِلَيْهِ بِكُلِّ رُعْمَالِهَا
وَصِنَادِيدِ الْكُفْرِ بِهَا . وَكَانَ الْحَكَمُ بْنُ هِشَامٍ وَابْنُهُ
عِكْرِمَةُ ، عَلَى رَأْسِ هَذَا الْجَيْشِ . وَإِنْ كَانَ أَبُو جَهْلٍ
يَرَى أَنَّهَا مُجْرَدُ تَزَمَّةٍ وَلَيْسَتْ حَرْبًا ، فَأَقَامَ الْأَحْضَالَاتِ ،
وَنَحَرَ الْإِبِلَ ، وَسَقَى الْخُمُورَ .

وَكَانَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - لِلْحَكَمِ بِالْمِرْصَادِ ،
لِقَتْلِ بَأْيَدِي الصُّغَّاءِ الَّذِينَ طَالَمَا أَقْبَى ظُهُورَهُمْ
بَسَوطُهُ .

قَالَتْ هَذِي : وَمَاذَا عَنْ عِكْرِمَةَ ؟ مَاذَا جَرَى لَهُ فِي
الْمَعْرَكَةِ ؟

قَالَ وَاللَّهِ : اسْتَطَاعَ عِكْرِمَةُ أَنْ يَنْجُوَ بِنَفْسِهِ ، فَفَرَّ
 بَعْدَ أَنْ رَأَى مُصْرَعِ أَبِيهِ أَمَامَ عَيْنِهِ ، مِمَّا دَفَعَهُ لِأَنْ يَحْتَلَّ
 مَكَانَ أَبِيهِ ، وَيَحْفِزَهُ لِأَنْ يَقْتُلَ مُحَمَّدًا أَنْتِقَامًا لِقَتْلِهِ .
 تَعَجَّبَ أَيُّمُنُ فَقَالَ : إِنَّهَا بَدَايَةُ سَيِّئَةٍ لَا تُبْسَرُ بِقِصَّةِ
 صَحَابِيٍّ مُخْلِصٍ .

قَالَ وَاللَّهِ : هَذَا جُزْءٌ مِنْ كُلِّ . فَقَدْ كَانَ لَهُ الْكَثِيرُ
 مِنَ الْمَوَاقِفِ الَّتِي أَظْهَرَ فِيهَا أَشَدَّ الْعِدَاءِ وَالْكُفْرَ لِلرَّسُولِ
 اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَلِلَّذِينَ الْإِسْلَامِي .
 فَفِي يَوْمٍ أَحَدٍ ، تَوَلَّى مَيْسَرَةَ جَيْشِ الْمُشْرِكِينَ ، وَهِيَ
 هِيَ ذَا يُشَارِكُ فِي حِصَارِ الْخَنْدَقِ ، وَلَمْ يَكْتَفِ بِحِصَارِ
 الْخَنْدَقِ وَإِنَّمَا يُحَاوِلُ اجْتِيَازَهُ هُوَ وَبَعْضُ الْمُشْرِكِينَ ،
 وَلَكِنْ سُوِّفَ الْمُسْلِمِينَ كَانَتْ لَهُمْ بِالْمُرْصَادِ ، وَلَمْ يُنْجِهِ
 إِلَّا الْفَرَارُ .

ويوم الفتح الأَكْبَر ، يوم فتح مكة ، لم يخضع عكرمة
 وبَرَضَى بدُعاءِ أبى سفيان : من دخل داره فهو آمن .
 بل فضَّل القتالَ والدِّفاعَ عن دينِ أجداده لِأخِرِ لحظةٍ ،
 فجمعُ فِتيانِهِ وجُنودِهِ من بنى مخزومٍ لِلإِلقاءِ المُسلمينَ ،
 فتصدَّى لهم سيفُ الله المَسلولُ خالدُ بنُ الوليدَ ، ولقَّنيهم
 ذرئاً عظيماً ، فلم يجدْ عكرمةُ بداً من الفِرارِ من مكةَ ،
 خاصَّةً بعدَ أن أعلنَ الرسولُ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -
 عفوَهُ عن أهلِ مكةَ ، مُستتبِها منهم جماعةٌ قليلةٌ ، على
 وأسيبِهِمْ عِكرمةُ بنُ أبى جهلٍ ، فقد أحلَّ - صَلَّى اللهُ
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - دمه . فزجَّه عكرمةُ إلى اليَمَنِ ، ولكنَّ
 الخوفَ دَفَعَهُ إلى مُواصلَةِ الهِجرةِ إلى الحِمْيَةِ .

استَقَلَّ عِكرمةُ السَّفينةَ إلى الحِمْيَةِ ، وهناك كانتِ
 اللَّحظةُ الحاسِمةُ في حياتِهِ ، لَحظةُ انتِقالِهِ من ظُلُمَةِ
 الشُّركِ إلى نورِ الإِيمانِ .

اشدّ انعباء الأولاد ، وتساءل أين : ماذا حدث
يا أبى ؟ ماذا يُمكن أن يُغيّر عقيدة شخصٍ مثل
عكرمة ؟

قال والده : هُبْتُ فى أثناء رحلته إلى الحبشة ، ربح
عاصفة شديدة ، كادت تُزدي إلى غرق السفينة بمن عليها .
ولما نادى الرّبان الحبشى : اخلصوا نياتكم لله ، فإن
آلهتكم لن تُنقى عنكم شيئاً .

فكر عكرمة فى نفسه : لن يُنجينى فى البحر إلا
الإخلاص ، ولن يُنجينى فى البر غيره .

ورفع يديه إلى السماء داعياً : اللهم لك على عهد إن
أنت عاليتى لما أنا فيه ، لاَ أُبَيِّنُ مُحَمَّدًا حَتَّى أَضَعُ يَدِي
فِي يَدِهِ ، ولأجدته غفوراً كريماً .

ولطف الله العفو الكريم بعكرمة ، وقيل توبته ونجاة
من شديده التي كان فيها ، ليصل إلى مكة ويُعلن إسلامه ،
ويبدأ حياة جديدة .

قالت هدى : لقد أكرمته الله سبحانه وتعالى من
الغرق ، فإن كان قد مات عندئذٍ لكانت عاقبته النار لا
شك .

قال والدها : نجا عكرمة ، ولكنه بقي مُتَحَيِّراً . كيف
يصل إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وبأى
وجه يُقابله بعد كل ما كان منه من صد عن دينه
وعداون له ولأصحابه ؟

وحدثت المفاجأة ، وقابل زوجته - أم خليمة -
وكانت قد أسلمت يوم الفتح واستأمنت الرسول -
صلى الله عليه وسلم - على زوجها ، فأمّنها عليه ،

فخرجت تبحث عنه حتى إذا وجدته باذرت به بقولها :
جنتك من عند افضل الناس واكرمهم ، وقد امنتك .

وفي مكة ماب عكرمة لحظة اللقاء . وعند باب
الرسول لقي من العفو والسماحة والحب ، كل ما لم
يخطر على باله . فقد خرج إليه - صلى الله عليه وسلم -
لعائقه وقال : مرحبا بالراكب المهاجر .

وسأله عكرمة عما يجب عليه أن يفعله لئلا
- صلى الله عليه وسلم - تقول : أشهد الله وأشهد من
حضر أني مسلم فجاهد مهاجر .

عندئذ سأله - صلى الله عليه وسلم - أن يطلب ما
شاء وسوف يعطاه . فكان طلبه العفو والسماح والتوبة
والغفرة .

قال محمود : إن لحظة إسلامه هي لحظة ميلاد جديد له .
لحظة موت مشرك شقي ضال ، وميلاد مسلم تقى ورع .

ودعا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ كُلَّ
 عداوةٍ عادانيها ، وكلَّ مسيرٍ سار فيه إلى موضعٍ يريد
 إطفاءَ نوريك ، واغفر له ما نال من عرضي في وجهي ،
 أو وأنا غائبٌ عنه .

فتنهّل وجهه عكرمة فقال :

- أما والله يا رسول الله لا أدع نفقةً أنفقتها في
 الصّدِّ عن سبيل الله ، إلا أنفقتُ ضعفها في سبيل الله ،
 ولا قتالاً قاتلته لى الصّدِّ عن سبيل الله ، إلا قاتلتُ
 ضعفه في سبيل الله .

وتحوّل عكرمة من حالٍ إلى حال ، من أكبرِ ضحاياهِ
 الكُفَّارِ وأشرسِهِم عداوةً للإسلام ، إلى مُسلمٍ عابِدٍ زاهدٍ ،
 يحرصُ دائماً على العبادةِ ومداومةِ قراءةِ كتابِ الله .

ووفى عكرمة بوعده للرّسول - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
 وَسَلَّمَ - فكان سيفاً من السيوف التي شنها الإسلامُ

على المنافقين والكفار - فخرص على ملاحقة المنافقين الذين تسروا برداء الإسلام ، خوفاً من القتل .
فما كان منهم إلا أن يعطوه بقولهم : هذا عكرمة ابن عدو الله أبي جهل .

ويغضب عكرمة ويشكوه للرسول - صلى الله عليه وسلم - فيجمع الرسول الناس عند البيت الحرام ، ويقول لهم : لا تسبوا أباه ، فإن سب الميت يؤذي الحي ولا يبلغ الميت . ولا تقولوا عكرمة بن أبي جهل ، بل قولوا عكرمة بن عمرو بن هشام .

وخرص عكرمة على نشر الإسلام ليكفر عما كان منه من صد عن سبيله ، فما خاض المسلمون معركة بعد إسلامه ، إلا وخاضها معهم ، ولا خرجوا في بعث إلا وكان معهم .

وقد رَضِيَ اللهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عن عِكْرِمَةَ وعن
إِسْلَامِهِ ، واستَصْلَحَهُ أخيراً على هَوَازِن .

قَالَتْ هُدَى : صدقَ المثلُ الَّذِي يَقُولُ : يَخْلُقُ من ظَهْرِ
القاسِدِ عَالِماً .

قال أبوها : بَلْ قَوْلِي من ظَهْرِ الكَافِرِ مُجَاهِداً في
سَبِيلِ اللهِ .

فقد اشْرَكَ في حُرُوبِ الرِّدَّةِ في عَهْدِ أَبِي بَكْرٍ
الصَّدِيقِ ، واشْرَكَ في الْقَضَاءِ عَلَى مُسْلِمَةَ الْكَذَّابِ ،
وقَادَ جُيُوشَ الْمُسْلِمِينَ في عُمانَ حتَّى أعَادَ للإِسْلامِ
مَجْدَهُ وعِزَّهُ ، ومن عُمانَ إلى مُهْرَةَ ، حتَّى كَسَبَ اللهُ
على هَذِهِ الْفِتْنَةِ أَنْ تَجْلِيَ وتُمحَى .

وأظْهَرَ عِكْرِمَةَ في يَوْمِ اليرْمُوكِ بِطَوَلَاتٍ لَا يُصَدِّقُهَا
عَقْلٌ ، فَعِدْما اشْتَدَّ الْكَرْبُ بِالمُسْلِمِينَ في أَحَدِ المَوَاقِفِ ،
نَزَلَ عَنْ جِراذِهِ ، وكَسَرَ غِمْدَ سَيْفِهِ ، وأَوْغَلَ في

صفوف الروم مُقَابِلًا . وعندما حاولَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ قَائِدُ الْجَيْشِ أَنْ يُرْجِعَهُ ، قَالَ : لَقَدْ قَاتَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ، وَأَقْرَأُ الْيَوْمَ مِنَ الرُّومِ ؟ إِنَّ هَذَا لَنْ يَكُونَ أَبَدًا .

ثُمَّ نَادَى : مَنْ يُبَايِعُ عَلَيَّ الْمَوْتَ . فَبَايَعَهُ عُمَةُ الْجَارِثُ بْنُ هِشَامٍ ، وَأَرْبَعُمِائَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَاتَلُوا جَمِيعًا مَعَ عِكْرِمَةَ ، أَمَامَ فُسْطَاطِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ .

وكَانَتْ لِحَظَاتِ زَهِيَّةٍ ، أَذْهَلَتْ الْأَعْدَاءَ مِنَ الرُّومِ حِينَ بَرَزَ عِكْرِمَةُ بِخَصْدِ الرِّقَابِ دُونَ كَلَلٍ أَوْ تَرَاجُعٍ .

وَاتَّهَتْ الْمَعْرَكَةُ وَلِجْدُهُ هُنَاكَ عَلَى الْأَرْضِ ، شَهِيدًا بَيْنَ الشُّهَدَاءِ وَالْجُرْحَى : نَجْدُهُ هُوَ وَابْنُهُ عَمْرُو بْنُ عِكْرِمَةَ مُنْطَلِحِينَ فِي دِمَائِهِمَا الطَّامِرَةِ ، أَمْلَأَ فِي اللَّهِ أَنْ يَكُونَ قَدْ غَفَرَ لَهُ مَا سَبَقَ مِنْهُ مِنْ صَدٍّ عَنْ سَبِيلِهِ ، وَمَا كَانَ مِنْهُ

من إساءة إلى المسلمين . أملاً أن يكون مكانه في فسح
جنته بين الشهداء والصالحين .

قال أيمن : شكراً لك يا أباي : إنها قصة شائقة حقاً ،
ونشكرك كثيراً لأنك أوضحت لنا موقف عكرمة من
الإسلام ، فدانماً ما نربط اسم أبي جهل بالكفر ، ولم يخطر
ببالنا أبداً أن ابنه عكرمة مات شهيداً في سبيل الإسلام .

قال والده : أن الإسلام يا ولدي لا يأخذ أحداً بحريرة
أبيه أو ابنه ، أو أبا ما كانت ذرّة قرابته .

فكل إنسان يخامس على عمله ، إن كان خيراً فخير
بإذن الله ، وإن كان شراً فشرّ وفقرّ والعياذ بالله . فعلى كل
إنسان أن يجتهد وليجتهد قبل إلى بر الأمان ، ويحظى
برضا الله ومغفرته بإذن الله .

والآن خذوا حظكم من اللعب والغريض ، قبل أن
تعودوا إلى المنزل .